وإنما سلبه بعد إثباته، فإذ لم يهتدوا به سلبه الله عنهم و﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ . . .﴾[١] ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾[٢] فنور التكوين من الفطرة والعقل، ونور التشريع ككل شرعة، ونور الإيصال إلى هدى التشريع، كل ذلك ليست إلّا من الله فـ ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾[٣].

وقد يشمل «الذين كفروا» في مثله الأول، المتظاهرين بالإسلام وهم كفار، والمضلّلين في عقائدهم وأعمالهم وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً، فهم يرونها حسنة وهي كسراب بقيعة، ثم المثل الثاني يختص بالكفر المطلق.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾﴾:

هنا وفي الأسرى ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن . . .﴾: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۚ . . .﴾[٤] وفي سائر القرآن «يسبح أو سبح ما . . .»[٥] ففرق بينهما بـ«من» و«ما» فهذا يعم تسبيح الكون أجمع بما فيه ومن فيه، تكوينياً حيث يدل بكمال صنعه على كمال صانعه وهو للكون كله، واختيارياً وهو يخص بعض الكون، ولكن «من» قد تعني ذوي العقول وأضرابهم في شعور التسبيح كالطير أماذا من حيوان سوى

(١) سورة البقرة، الآية: ٧.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٧.
(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٤٣.
(٤) سورة الإسراء، الآية: ٤٤.
(٥) سبّح لله ما في السماوات وما في الأرض ٦١: ١ و٥٩: ١ والأرض ٥٧: ١ يسبح له ما في السماوات وما في الأرض ٦٢: ١ و٦٤: ١ والأرض ٥٩: ٢٤.

الإنسان والملك والجان، أو أنها تعني كما تعنيه «ما» كما في الأسرى ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ . . .﴾[١]؟ فـ ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ . . .﴾[٢]!

وقد يتأيد عموم «من» هنا مثل «ما» بأنها لو عنت تسبيح الاختيار القاصد من ذوي العقول الخصوص لما شملت إلّا المؤمنين، وظاهر ﴿مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ استغراقه للكلِّ، والكافر لا يسبح باختيار وإيمان، وإضافة الطير قرينة أخرى أنه الكل، فمؤمنهم العالم ﴿قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ﴾ وتسبيحه، وغيرهم يسبح كمن يعلم، فـ «كل» ممن في السماوات والأرض والطير أمّن ذا ﴿قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ مهما اختلفت مراتب العلم والصلاة والتسبيح، فالكون محراب شاسع تصلي فيه الكائنات لربها وتسبح، ولكنما الإنسان الغافل المتجاهل قد يترك تسبيح المختار وصلاته عن إيمان ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾[٣]!

و﴿أَلَمْ تَرَ﴾ قد تعني الرسول ﷺ ومن يعنيه من ذويه، فهم يرون علم اليقين وعينه وحقه أن الكون كله يصلي ويسبح لله، يرون ما يراه سواهم من تسبيح التكوين تدليلاً على المكون، وما لا يراه سواهم مما ﴿لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[٤] وكما يرون صنوف الصلاة والتسبيح! ولا تعني الرؤية هنا إلّا بالغ العلم والمعرفة كل حسب مستواه ومقتضاه.

فـ ﴿وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ . . .﴾ من ذا الذي يرى تسبيحها وصلاتها الجماعية في صفيفها ودفيفها إلّا من يوحى إليه مثل داود: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ﴾[٥] ومن ذا الذي يعلمها أنها تعلم صلاته وتسبيحه؟

---

(١) سورة الحجر، الآية: ٢١.
(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٧٩.
(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٧٢.
(٤) سورة الإسراء، الآية: ٤٤.
(٥) سورة الأنبياء، الآية: ٧٩.

و«كلّ» هنا تعم من في السماوات والأرض ومنهم الطير، حيث تذكر كمثال لكل الحَيَوان، مهما اختلفت صلاتهم وعلمهم لصلاتهم وتسبيحهم!

أترى ﴿عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥۗ﴾ تشمل من يعلمها ولا يصلي كالكفار من الجنة والناس؟! اللّهم لا! لمكان «يسبح» فهو إذاً علم العمل ويخص الصلاة والتسبيح عن علم، فلا يعم التسبيح التكويني فإنه ليس عن علم.

تعال معي لننظر إلى الطير صافات في صلوات وتسبيحات بعد ما رأينا صلواتنا في جماعات، نحن نعبد ربنا في صلوات ثابتات وأحياناً في تسبيحات وتحميدات بحركات دورانية دورية كالطواف أم بيضوية كالسعي أماذا.

والطير صافات في صفوف متحركة جوية تسبح ربها وتصلي في مختلف السرعة، أسرعها فيما نعرف حتى الآن حشرة (سفنوميا) وهي في أمريكا الجنوبية والشمالية وبعض أنحاء أوروبا، فهي تقطع في الساعة ٨١٥ ميلاً، فإن جناحيها يدوران كل ثانية بضع آلاف المرات... لو أتيح للإنسان يطير مثل هذه الحشرة لحلّق الكرة الأرضية في (١٧) ساعة![1].

وقد تعني في دلالة بدلية طولية كل مَن بإمكانه أن يرى كما يسطع وأقله تسبيح التكوين تدليلاً على خالق، ثم تسبيح الشعور بما أوحاه كما في آية الأسرى، ومن ثم تسبيح التكليف، وكلٌّ تلو الآخر مزيد لنور المعرفة الإلهية، ولا يُحرم أي عاقل مكلف من رؤية مّا لتسبيح مّا للكون الذي يراه قدر ما يراه.

تسبيح الكون كله تدليلاً على خالق سبحان هو نورٌ في الكون كله ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ...﴾ وتسبيح الشعور وشعور كل تسبيح هما من نور الوحي: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾!

(١) كشفها (تشارلس تونسند) البحاثة الأميركي الشهير كما في تفسير الجواهر ج ١٢: ٣٤.

فهنالك رؤية شاملة لتسبيح الكون قبل الوحي، تشمل كل عاقل، ورؤية بالوحي كما في آية الإسراء، ورؤية مع الوحي كما للرسل، وكذلك كان أوّل العابدين، إذا مشى سمع تسبيح الحصى تحت قدميه، ومعه داود ومن معه يرتل مزاميره فتؤوب معه الجبال والطير! ثم ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ﴾ قد يخص أفعال العقلاء المختارين من تسبيح وسواه، أو وأفعال الكافرين الذين هم أعمالهم كسراب أو كظلمات، أو يعمهما وكل كائن في فعل التسبيح أياً كان أم أي فعلٍ كان.

ولماذا لا يسبح له «مَن وما» ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾؟ ﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ «أيا كان وأيان ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ في الختام!

﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزۡجِي سَحَابٗا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيۡنَهُۥ ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ رُكَامٗا فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٖ فِيهَا مِنۢ بَرَدٖ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُۖ يَكَادُ سَنَا بَرۡقِهِۦ يَذۡهَبُ بِٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٣﴾﴾:

هنالك نخطو خطوات معرفية إلى بارئ الكون من إزجاء سحاب إلى تأليفه إلى جعله ركاماً فترى الودق يخرج من خلاله، أم بَرَداً ينزل منه، صورتان تختلفان بسيرة واحدة من مختلف السحاب! ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ أيها الرسول ثم كل من يرى ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُزۡجِي سَحَابٗا﴾ فالإزجاء هو الدفع للانسياق، والقلع شيئاً فشيئاً[1] كما ﴿يُزۡجِي لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ﴾ والسحاب فَعالٌ من السَّحب: الجرّ، فالسحاب المزجى هو أبخرة المياه الأرضية المزجاة إلى جو السماء.

إن حرارة الشمس - وأيّة حرارة - تبخِّر المياه فوق الأرضية، ولأن الأبخرة خفيفة، تُزجى وتُسحب بجاذبية السماء، وهذه العملية الفزيائية تعني

(١) إزجاء السير في الإبل هو الرفق بها حتى تسير شيئاً فشيئاً، وكذلك أبخرة الماء الصاعدة المزجاة إلى السماء، ومنه ﴿بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ﴾ [يُوسُف: ٨٨] قليلة.

إزجاء السحاب، ولأن الله هو المحوِّل في كل تحويل والمحوِّر في كل تحوير، فهو الذي يزجي سحاباً، ليس كصدفة عمياء غير قاصدة، بل هو سحب وإزجاءٌ قاصد!

أترى أن مجرد إزجاء السحاب من مختلف الأبخرة يكفي لتكوُّن سحاب يمطر وَدقاً أو مطراً أو بَرَداً؟ كلّا! فهناك التأليف بينه ليُنشئ سحاباً ثقالاً، حيث الأبخرة المتفرقة والخفيفة لا تنزل ودقاً فضلاً عن بَرد: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾[1].

هنالك الرياح تجمع بين كُتَل البخار المسحبة المُزجاة، فتجعله ركاماً: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَـٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ...﴾[2].

والسحاب الثقال هي التي تحمل الماء لركامها، إزجاءً ثم تأليفاً ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا﴾ سحاباً ثقالاً! وكل هذه عمليات قاصدة هادفة، ونحن نرى الأفعال ولا نرى الفواعل الطبيعية فضلاً عن الفاعل الإلٰهي أو ملكوتاً من فعله.

وهناك ثقل أوّل للسحاب وتحت ضغوط الرياح وبرودة الهواء أماذا من معدات، ينتج نزول الأمطار: ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَـٰلِهِۦ﴾ كأنها غرابيل تغربل ودَق المطر، كما يتراءى لرائي الأرض! والودق هو بداية المطر، أوّل ما ينزل من غرابيل السحاب كأنه غبار المطر براعة استهلاله، ثم المطر، فالودق هو بداية المطر ومناديه، ثم تنضم أجزاؤه فتصبح قطرات بعد الغبرة، وبسرعة بعد الفترة، ومن ثم إذ تكاثفت السحاب بركام واندغام أكثر، وفي برودة أوفر، أصبحت كجبال البرد: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ...﴾.

(١) سورة الرعد، الآية: ١٢.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ٥٧.

إن مشهد السحاب الضخمة الكثيفة التي تغربل ثلجاً وبرداً هو مشهد الجبال حقاً، فمهما كانت لا تتراءى لناظر الأرض جبالاً، فإنها ترى لراكب الطائرة التي تحلق فوقها أو تسير بينهما، ترى جبالاً بضخامتها ومساقطها وارتفاعاتها وانخفاضاتها، صورة هائلة لهذه السحاب لم يكد يراها الناس إلا بعد ركوب الطائرات.

ولكنما الطائر القدسي المحمدي الذي حلّق على الكون كله ليلة المعراج ببصره، وأحاط به علماً ببصيرته، إنه كان يراها دون طائرة: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ...﴾[1]!.

إن نازل السماء من هذه السحاب وَدقٌ ومطر وثلجَ وبَرَد كلّها من الأبخرة المزجاة المسحبة من المياه فوق الأرضية، وقد يعم البرد الثلج وليس في القرآن بعد الودق والمطر إلّا البَرَد!

فـ ﴿مِن جِبَالٍ فِيهَا﴾ هي تلك التي تحمل البرد وهي السحاب الثقال تشبيهاً بالجبال بكثائف أطوادها ومشارف هضابها، والضمير في «فيها» عائد إلى السماء دون الجبال، و«من برد» تتعلق بـ «وينزل»[2] إنه ينزل من السماء - من جبال فيها هي السحاب البردية - يُنزل مِن برد: بعضه لا كله، فلو نزل كله لكانت الإصابة أخطر والفادحة أكثر، ولكن ﴿يُنَزِّلَ...﴾ ﴿مِنۢ بَرَدٍ﴾ جنسه، ثلجاً أماذا، وبعضه لا كله! «فيصب به» البرد «من يشاء» إصابته عذاباً أو تأديباً، امتهاناً أو امتحاناً... ﴿وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ﴾ صرفه عنه فلا امتهان ولا امتحان، فالبردُ - إذاً - كعذابٍ قل أو كثر، يصيب الأشجار والأثمار والأبنية وأصحابها، وقد تصبح كرصاص تجرح أو تقتل لكبرها وشدة وقعتها!

(١) سورة النجم، الآية: ١٨.

(٢) فليس من برد تعني - فقط - جنس الجبال، فإنها ليست برداً كما السحاب الممطرة ليست مطراً ثم لا متعلق - إذاً - لـ - «ينزل» فماذا ينزل من جبال فيها من برد، والأولى الجمع بينهما: إن من برد تتعلق بـ - «ينزل» كما تتعلق بكائن حيث توضح جنس الجبال.

﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾ والسنا هو الضوء الساطع، فساطع الضوء من برق السحاب[١] الودق، والمطر والبَرَد، يكاد يذهب بالأبصار، لشدة الالتماع وسرعة الإيقاع!.

أترى ﴿مِن جِبَالٍ فِيهَا﴾ هي المستكنة في السماء المختلفة عن سحاب الودق المطر؟ والبرد يتحول في الأرض ماءً! وليس نازل السماء إلّا صاعد الأرض دون زيادة أو نقيصة اللّهم إلّا في طوفان نوح! ﴿يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى...﴾[٢] فللأرض ماؤها المخصوص بها، ما يتبخر منها ويرجع وما يتبقى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾[٣] ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ﴾[٤] حيث ترجع أماناتها الأبخرة دون إبقاء ودقاً ومطراً وبرداً![٥].

وصيغة الإصابة والصرف في البرد دليل أنه نقمة دون رحمة، ولكنما الثلج الرخو في الأكثر رحمة إذ لا إصابة فيه وقعاً ولا واقعاً إلا سترةً على أشجار ومخازن فوق الأرضية للمياه، فمهما يشمله البرد في أصله ليس ليشمله في إصابته وفصله أو أنه لا يشمل الثلج الرخو أصلاً.

ويا للبرد: - بندقية العذاب - من أشكال هندسية عجيبة شتى تحير العقول، يرتفع البخار في الجو فيصبح كالهباء ثم تتجمع أجزاؤه لما فيه من

(١) الضمير الغائب في برقه لا يصلح رجوعاً إلا إلى محور الكلام (السحاب) وأما الودق والبرد أما ذا فلا، والسحاب اسم جنس جمعي واحده سحابة فقد يرجع إليه - كما هنا - ضمير الواحد باعتبار اللفظ، أو الجمع باعتبار المعنى كالسحاب الثقال.

(٢) سورة هود، الآية: ٤٤.

(٣) سورة المؤمنون، الآية: ١٨.

(٤) سورة الطارق، الآية: ١١.

(٥) لم يأت الودق والبرد في القرآن إلا هنا، والمطر في (٨) مواضع والذي يعني مطر الماء في موضعين ﴿إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ﴾ [النّساء: ١٠٢] ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ﴾ [الأحقاف: ٢٤] ولم يكن ممطراً! وإنزال الماء من السماء نجده في آيات كثيرة وهو يشمل الثلاثة.

نداوة فينزل كالعهن المنفوش أحياناً، أو تتجمع باندغام أكثر في ضغط الرياح فينزل برداً أخرى إذ تروج أجزاؤه بمصاكة الرياح، أو ينزل ماءً ثالثة حيث البرودة في الجو أقل من هذه وتلك، والرطوبة أكثر، أو عمود النزول أطول، فهذه إضبارة مثلث نازل السماء حسب مختلف الظروف، والأصل واحد هو البخار دون أن تكون هناك في السماء مياه غير هذه الأبخرة الأرضية، تمطر، أم جبالٌ من بَرَد تَهطِر!.

﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٤﴾﴾:

آية التقليب هذه يتيمة لا مثيل لها في القرآن، ففي آيات الليل والنهار قد يأتي اختلافهما (٢: ١٦٤) وأخرى وخِلَّفتهما (٢٥: ٦٢) وثالثة إيلاج كلّ في الآخر (٣: ٢٧) ﴿يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا﴾[١] وخامسة ﴿ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ﴾[٢] ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ﴾[٣] ثم لا نجد تقليباً لهما إلّا هنا فماذا يعني تقليبهما؟

قلب الشيء هو صرفه عن وجه إلى وجه زماناً أو مكاناً، صورياً أو ماهويّاً أما ماذا من وجه، فتقليبه هو كثرة قلبه عِدّة وعدُّة بمختلف الوجوه، من تقليب في مكان حيث الليل يسلخ منه النهار كما النهار يسلخ منه الليل، فكلٌّ يأتي مكان الآخر خِلفة واختلافاً، وهذا من خلفيات تقليب الكرة الأرضية، ومن تقليب زمني إذ ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾[٤] تقصيراً من أحدهما فتطويلاً في صاحبه، وهو من خلفيات الحركة البيضوية للأرض فتحصل منها الفصول الأربعة حيث يقتضي مختلف الودق

(١) سورة الأعراف، الآية: ٥٤.
(٢) سورة يس، الآية: ٣٧.
(٣) سورة المزمل، الآية: ٢٠.
(٤) سورة الحج، الآية: ٦١.

والإمطار، وفي الشتاء الثلج والبرد، فكلّ من هذه الأربع فصلٌ فالأخيران شتويان، ومهما عم الأولان كل الفصول، ولكنهما في الصيف قليل، ثم يكثر أن خريفاً ثم ربيعاً وفي الشتاء غزير كثير، وهذا مما يربط آية التقليب بآية الودق والبرد! فآية التقليب تعني ما تعنيه سائر الآيات وزيادة تعم كل تغيير وتحوير في الليل والنهار بما يحملهما من أرضهما، تقليب مقدّرٌ قاصد دون هرج ومرج وفوضى ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ التقليب الحكيم الهادف ﴿لَعِبْرَةً﴾ يُعبر بها إلى القدرة الحكيمة لمقلبهما ﴿لِّأُولِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ الذين يبصرون بهما فيبصِّرانهم، لا إليهما فيعميانهم كما الدنيا كلها: «من أبصر بها بصرته ومن أبصر إليها أعمته»!

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾﴾:

هنا خلق كل دابة من ماء ولا تشمل كل حي، وفي الأنبياء ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾[1] شاملة غير الدواب، من سابح البحر وطائر الجو طيراً، وطائر السماء ملائكة أمّن ذا من كائن حيٍّ، بحياة نباتية أو حيوانية أو إنسانية أو جنية أو ملكية، وكل حي أياً كان وأيّان، إلّا الميّت كالجمادات مهما كانت لها حياة التسبيح بحمد ربهم، ثم وفي هود يعتبر الماء - وهو المادة الأم وهي تعم الماء وسواه من كائن - يعتبره مادةً لخلق الكون أجمع: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ...﴾[2] [3] ولا

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٣٠.

(٢) سورة هود، الآية: ٧.

(٣) إنما عبر هنا عن المادة الأولية بالماء إذ لا خبر عن حقيقة هذا الماء فلا اسم موضوعاً يعرفه، فاستعير لفظة الماء إذ تحمل حقيقة تشابه المادة الأولية في مسانخة الأجزاء وهي معروفة لدى الكل، فمن المعلوم أن ذلك الماء ليس ماء السماوات والأرض لأن ﴿كَانَ﴾ يضرب إلى=

تصريحة في القرآن بخصوص خلق دابة أو حيّ من ماء إلّا الإنسان: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾[١] ولكنه - كما الماء المادة الأولى - ليس الماء المعروف، بل ﴿مَّآءٍ دَافِقٍ﴾[٢] و﴿مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾[٣].

فماء الكون أجمع يشمل ماء كل حي وسواه، وماء الحياة يشمل كل دابة وسواها من حي، مياه ثلاثة أولاها المادة الأُمّ، وثانيتها مادة الحياة، وثالثتها مادة الدواب، أترى أن الأخيرين واحدٌ هو الماء، فلماذا خصت هنا كل دابة دون كل حي كما هناك؟ علّه لأن ماء الدواب هو المني مهما كان أصله الماء، وأما الملائكة فلا مني في خلقهم إذ لا تناسل بينهم، وأما الطير فهي وإن كانت من ماءِ المني، ولكنها - إلّا ما شذ - تخلق من بيض مهما حصلت من مني، وأما الدواب فلا بيض في خلقها إلا توالداً من مني يُمنى!

فأحياء الكون من دابة وسواها مخلوقة من ماء ككلٍّ، ولكنما الدواب تخلق من ماء المني مهما كان أصله الماء، دون غير الدواب إلّا نذراً.

وقد تلمح التنكر في «من ماءٍ» أنه غير الماء الذي جعل منه كل حيٍّ أو يعمه، كما التعريف في «من الماء» لمحة إلى أنه الماء المعروف، أن جعل كل حي منه كما أن بقاءه به!

ثم ﴿خَلَقَ﴾ هنا و«جعلنا» هناك لمحة ثانية إلى الفرق بين الماءين، فالخلق هو التقدير، والجعل البسيط كما هنا هو الإيجاد، فقد قدر كل دابة ولادة من ماءٍ، كما جُعل كل حيٍّ - تكويناً يعم الولادة - من الماء!

= ماض قبل خلق السماوات والأرض، وكان عرشه يعني وكان بناؤه في خلقه السماوات والأرض على الماء، خلقهما منه.

(١) سورة الفرقان، الآية: ٥٤.

(٢) سورة الطارق، الآية: ٦.

(٣) سورة السجدة، الآية: ٨.